الإمام البخاري

من مشاهير أعلام المسلمين

الإمام البخاري

الإمام الجليل والمحدث العظيم محمد بن إسماعيل البخاري أمير أهل الحديث، وصاحب أصح كتاب بعد كتاب الله تعالى، يقول البخاري: صنفت الصحيح في ست عشرة سنة وجعلته حجة فيما بيني وبين الله تعالى.

ولم يشهد تاريخ الإسلام مثله في قوة الحفظ، ودقة الرواية، والصبر على البحث مع قلة الإمكانات، حتى أصبح منارة في الحديث، وفاق تلامذته وشيوخه على السواء.

ويقول عنه أحد العلماء: لا أعلم أني رأيت مثله كأنه لم يخلق إلا للحديث.

فمع سيرة البخاري ومواقف من حياته.

نسبه ومولده:

هو أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبه البخاري، وكلمة بردزبه تعني بلغة بخارى " الزراع ".

أسلم جده " المغيرة " على يدي اليمان الجعفي والي بخارى وكان مجوسيًا، وطلب والده إسماعيل بن إبراهيم العلم والتقى بعدد من كبار العلماء، وروى إسحاق بن أحمد بن خلف أنه سمع البخاري يقول: سمع أبي من مالك بن أنس، ورأى حماد بن زيد، وصافح ابن المبارك بكلتا يديه.

ولد أبو عبد الله في يوم الجمعة الرابع من شوال سنة أربع وتسعين.

ويروى أن محمد بن إسماعيل عمي في صغره فرأت والدته في المنام إبراهيم الخليل عليه السلام، فقال لها: يا هذه، قد رد الله على ابنك بصره لكثرة بكائك، أو كثرة دعائك شك البلخي، فأصبحت وقد رد الله عليه بصره.

قوة حفظه وذاكرته:

ووهب الله للبخاري منذ طفولته قوة في الذكاء، والحفظ من خلال ذاكرة قوية تحدى بها أقوى الاختبارات التي تعرض لها في عدة مواقف.

يقول محمد بن أبي حاتم: قلت لأبي عبد الله: كيف كان بدء أمرك؟ قال: ألهمت حفظ الحديث، وأنا في الكتاب. فقلت: كم كان سنك؟ فقال: عشر سنين أو أقل، ثم خرجت من الكتاب بعد العشر، فجعلت أختلف إلى الداخلي وغيره، فقال يوما فيما كان يقرأ للناس: سفيان عن أبي الزبير عن إبراهيم، فقلت له: إن أبا الزبير لم يرو عن إبراهيم فانتهرني، فقلت له: ارجع إلى الأصل، فدخل فنظر فيه ثم خرج فقال لي: كيف هو يا غلام؟ قلت: هو الزبير بن عدي عن إبراهيم.

فأخذ القلم مني وأحكم(أصلح) كتابه وقال: صدقت.

فقيل للبخاري: ابن كم كنت حين رددت عليه؟ قال: ابن إحدى عشرة سنة.

ولما بلغ البخاري ست عشرة سنة كان قد حفظ كتب ابن المبارك ووكيع.

وقال محمد بن أبي حاتم الوراق: سمعت حاشد بن إسماعيل وآخر يقولان: كان أبو عبد الله البخاري يختلف معنا إلى مشايخ البصرة وهو غلام فلا يكتب حتى أتى على ذلك أيام فكنا نقول له: إنك تختلف معنا ولا تكتب، فما تصنع؟ فقال لنا يوما بعد ستة عشر يوما: إنكما قد أكثرتما علي وألححتما فاعرضا عليَّ ما كتبتما،

فأخرجنا إليه ما كان عندنا فزاد على خمسة عشر ألف حديث فقرأها كلها عن ظهر قلب حتى جعلنا نحكم كتبنا من حفظه، ثم قال: أترون أني أختلف هدرًا، وأضيع أيامي فعرفنا أنه لا يتقدمه أحد.

وقال ابن عدي: حدثني محمد بن أحمد القومسي، سمعت محمد بن خميرويه، سمعت محمد بن إسماعيل يقول: أحفظ مائة ألف حديث صحيح وأحفظ، مائتي ألف حديث غير صحيح

قال: وسمعت أبا بكر الكلواذاني يقول: ما رأيت مثل محمد بن إسماعيل كان يأخذ الكتاب من العلماء فيطلع عليه اطلاعة فيحفظ عامة أطراف الأحاديث بمرة.

طلبه للحديث:

رحل البخاري بين عدة بلدان طلبا للحديث الشريف ولينهل من كبار علماء وشيوخ عصره في بخارى وغيرها.

وروي عن البخاري أنه كان يقول قبل موته: كتبت عن ألف وثمانين رجلا ليس فيهم إلا صاحب حديث كانوا يقولون: الإيمان قول وعمل يزيد وينقص.

ونعود إلى البخاري في رحلته في طلب العلم ونبدؤها من مسقط رأسه بخارى، فقد سمع بها من الجعفي المسندي، ومحمد بن سلام البيكندي، وجماعة ليسوا من كبار شيوخه، ثم رحل إلى بلخ، وسمع هناك من مكبن بن إبراهيم وهو من كبار شيوخه، وسمع بمرو من عبدان بن عثمان، وعلي بن الحسن بن شقيق، وصدقة بن الفضل. وسمع بنيسابور من يحيى بن يحيى، وجماعة من العلماء، وبالري من إبراهيم بن موسى.

وفي أواخر سنة ٢١٠هـ قدم البخاري العراق وتنقل بين مدنها ليسمع من شيوخها وعلمائها. وقال البخاري: دخلت بغداد آخر ثمان مرات في كل ذلك أجالس أحمد بن حنبل، فقال لي في آخر ما ودعته: يا أبا عبد الله، تدع العلم والناس وتصير إلى خراسان؟! قال:

فأنا الآن أذكر قوله.

ثم رحل إلى مكة، وسمع هناك من أبي عبد الرحمن المقرئ وخلاد ابن يحيى، وحسان بن حسان البصري، وأبي الوليد أحمد بن محمد الأزرقي والحميدي.

وسمع بالمدينة من عبد العزيز الأويسي، وأيوب بن سليمان بن بلال وإسماعيل بن أبي أويس.

وأكمل رحلته في العالم الإسلامي آنذاك، فذهب إلى مصر، ثم ذهب إلى الشام، وسمع من أبي اليمان، وآدم بن أبي إياس، وعلي بن عياش وبشر بن شعيب، وقد سمع من أبي المغيرة عبد القدوس، وأحمد ابن خالد الوهبي، ومحمد بن يوسف الفريابي وأبي مسهر وآخرين.

مؤلفات البخاري:

عد العلماء كتاب الجامع الصحيح المعروف بـ (صحيح البخاري) أصح كتاب بعد كتاب الله، ويقول عنه علماء الحديث: هو أعلى الكتب الستة سندًا إلى النبي ﷺ في شيء كثير من الأحاديث؛ وذلك لأن أبا عبد الله أسن الجماعة وأقدمهم لقيا للكبار، أخذ عن جماعة يروي الأئمة الخمسة عنهم ".

ويقول في قصة تأليفه " الجامع الصحيح ": " كنت عند إسحاق بن راهويه، فقال بعض أصحابنا: لو جمعتم كتابا مختصرا لسنن النبي فوقع ذلك في قلبي، فأخذت في جمع هذا الكتاب ".

ويقول في بعض الروايات:

- أخرجت هذا الكتاب من زهاء ستمائة ألف حديث.

- ما وضعت في كتابي الصحيح حديثا إلا اغتسلت قبل ذلك وصليت ركعتين.

- ما أدخلت في هذا الكتاب إلا ما صح، وتركت من الصحاح كي

لا يطول الكتاب.

ويروي البخاري أنه بدأ التأليف وعمره ١٨ سنة فيقول:

" في ثمان عشرة جعلت أصنف قضايا الصحابة والتابعين وأقاويلهم وذلك أيام عبيد الله بن موسى، وصنفت كتاب التاريخ إذ ذاك عند قبر رسول الله في الليالي المقمرة، وقل اسم في التاريخ إلا وله قصة إلا أني كرهت تطويل الكتاب، وكنت أختلف إلى الفقهاء بمرو وأنا صبي فإذا جئت أستحي أن أسلم عليهم، فقال لي مؤدب من أهلها: كم كتبت اليوم؟ فقلت: اثنين، وأردت بذلك حديثين فضحك من حضر المجلس فقال شيخ منهم لا تضحكوا فلعله يضحك منكم يوما "

وقال أبو جعفر محمد بن أبي حاتم: قلت لأبي عبد الله: تحفظ جميع ما أدخلت في المصنف؟ فقال: لا يخفى على جميع ما فيه، وسمعته يقول صنفت جميع كتبي ثلاث مرات.

دقته واجتهاده:

ظل البخاري ستة عشر عاما يجمع الأحاديث الصحاح في دقة متناهية، وعمل دؤوب، وصبر على البحث وتحري الصواب قلما توافرت لباحث قبله أو بعده حتى اليوم، وكان بعد كل هذا لا يدون الحديث إلا بعد أن يغتسل ويصلي ركعتين.

يروي أحد تلامذته أنه بات عنده ذات ليلة فأحصى عليه أنه قام وأسرج يستذكر أشياء يعلقها في ليلة ثمان عشرة مرة.

وقال محمد بن أبي حاتم الوراق: كان أبو عبد الله إذا كنت معه في سفر يجمعنا بيت واحد إلا في القيظ أحيانا فكنت أراه يقوم في ليلة واحدة خمس عشرة مرة إلى عشرين مرة في كل ذلك يأخذ القداحة فيوري نارا ويسرج، ثم يخرج أحاديث فيعلم عليها.

وروي عن البخاري أنه قال: لم تكن كتابتي للحديث كما كتب هؤلاء كنت إذا كتبت عن رجل سألته عن اسمه وكنيته ونسبته وحمله الحديث إن كان الرجل فهما، فإن لم يكن سألته أن يخرج إلى أصله

ونسخته، فأما الآخرون لا يبالون ما يكتبون وكيف يكتبون.

وكان العباس الدوري يقول: ما رأيت أحدًا يحسن طلب الحديث مثل محمد بن إسماعيل كان لا يدع أصلاً ولا فرعًا إلا قلعه ثم قال لنا: لا تدعوا من كلامه شيئًا إلا كتبتموه.

تفوقه على أقرانه في الحديث:

ظهر نبوغ البخاري مبكرا فتفوق على أقرانه، وصاروا يتتلمذون على يديه، ويحتفون به في البلدان.

فقد روي أن أهل المعرفة من البصريين يعدون خلفه في طلب الحديث وهو شاب حتى يغلبوه على نفسه ويجلسوه في بعض الطريق فيجتمع عليه ألوف أكثرهم ممن يكتب عنه وكان شابا لم يخرج وجهه.

وروي عن يوسف بن موسى المروروذي يقول: كنت بالبصرة في جامعها إذ سمعت مناديًا ينادي يا أهل العلم، قد قدم محمد بن إسماعيل البخاري فقاموا في طلبه وكنت معهم فرأينا رجلا شابا يصلي خلف الأسطوانة، فلما فرغ من الصلاة أحدقوا به وسألوه أن يعقد لهم مجلس الإملاء، فأجابهم، فلما كان الغد اجتمع قريب من كذا كذ ألف، فجلس للإملاء، وقال: يا أهل البصرة، أنا شاب، وقد سألتموني أن أحدثكم وسأحدثكم بأحاديث عن أهل بلدكم تستفيدون منها.

وقال أبو أحمد عبد الله بن عدي الحافظ: سمعت عدة مشايخ يحكون أن محمد بن إسماعيل البخاري قدم بغداد فسمع به أصحاب الحديث فاجتمعوا، وعمدوا إلى مائة حديث، فقلبوا متونها، وأسانيدها، وجعلوا متن هذا لإسناد هذا، وإسناد هذا لمتن هذا، ودفعوا إلى كل واحد عشرة أحاديث ليلقوها على البخاري في المجلس فاجتمع الناس، وانتدب أحدهم فسأل البخاري عن حديث من عشرته، فقال: لا أعرفه وسأله عن آخر، فقال: لا أعرفه، وكذلك

حتى فرغ من عشرته، فكان الفقهاء يلتفت بعضهم إلى بعض، ويقولون: الرجل فهم. ومن كان لا يدري قضى على البخاري بالعجز، ثم انتدب آخر ففعل كما فعل الأول، والبخاري يقول: لا أعرفه، ثم الثالث: وإلى تمام العشرة أنفس، وهو لا يزيدهم على لا أعرفه. فلما علم أنهم قد فرغوا التفت إلى الأول منهم فقال: أما حديثك الأول، فكذا، والثاني: كذا، والثالث: كذا، إلى العشرة، فرد كل متن إلى إسناده، وفعل بالآخرين مثل ذلك، فأقر له الناس بالحفظ فكان ابن صاعد إذا ذكره يقول: الكبش النطاح.

وروي عن أبي الأزهر قال: كان بسمرقند أربعمائة ممن يطلبون الحديث فاجتمعوا سبعة أيام، وأحبوا مغالطة البخاري فأدخلوا إسناد الشام في إسناد العراق، وإسناد اليمن في إسناد الحرمين، فما تعلقوا منه بسقطة لا في الإسناد ولا في المتن.

وقال أحيد بن أبي جعفر والي بخارى: قال محمد بن إسماعيل يومًا: رب حديث سمعته بالبصرة كتبته بالشام ورب حديث سمعته بالشام كتبته بمصر فقلت له: يا أبا عبد الله بكماله قال: فسكت.

من كلمات البخاري:

(لا أعلم شيئًا يحتاج إليه إلا وهو في الكتاب والسنة).

(ما جلست للحديث حتى عرفت الصحيح من السقيم، وحتى نظرت في عامة كتب الرأي، وحتى دخلت البصرة خمس مرات أو نحوها فما تركت بها حديثًا صحيحًا إلا كتبته إلا ما لم يظهر لي).

(ما أردت أن أتكلم بكلام فيه ذكر الدنيا إلا بدأت بحمد الله والثناء عليه).

مواقف من حياة البخاري:

وقال بكر بن منير: سمعت أبا عبد الله البخاري يقول: أرجو أن ألقى الله ولا يحاسبني أني اغتبت أحدا. قلت: صدق رحمه الله ومن نظر في كلامه في الجرح والتعديل علم ورعه في الكلام في الناس،

وإنصافه فيمن يضعفه، فإنه أكثر ما يقول: منكر الحديث، سكتوا عنه، فيه نظر ونحو هذا. وقل أن يقول: فلان كذاب، أو كان يضع الحديث حتى إنه قال إذا قلت فلان في حديثه نظر فهو متهم واه، وهذا معنى قوله: لا يحاسبني الله أني اغتبت أحدًا، وهذا هو والله غاية الورع.

يقول محمد بن أبي حاتم: كان أبو عبد الله يصلي في وقت السحر ثلاث عشرة ركعة، وكان لا يوقظني في كل ما يقوم، فقلت: أراك تحمل على نفسك ولم توقظني! قال: أنت شاب ولا أحب أن أفسد عليك نومك.

* يروي البخاري، فيقول: كنت بنيسابور أجلس في الجامع فذهب عمرو بن زرارة وإسحاق بن راهويه إلى يعقوب بن عبد الله والي نيسابور، فأخبروه بمكاني، فاعتذر، إليهم وقال: مذهبنا إذا رفع إلينا غريب لم نعرفه حبسناه حتى يظهر لنا أمره، فقال له بعضهم: بلغني أنه قال لك لا تحسن تصلي، فكيف تجلس؟ فقال: لو قيل لي شيء من هذا ما كنت أقوم من ذلك المجلس حتى أروي عشرة آلاف حديث في الصلاة خاصة.

وذات يوم ناظر أبو بكر البخاري في أحاديث سفيان، فعرفها كلها ثم أقبل محمد عليه فأغرب عليه مائتي حديث، فكان أبو بكر بعد ذلك يقول: ذاك الفتى البازل والبازل الجمل المسن إلا أنه يريد هاهنا البصير بالعلم الشجاع.

قال محمد بن أبي حاتم: سمعت البخاري يقول: دخلت بلخ فسألني أصحاب الحديث أن أملي عليهم لكل من كتبت عنه حديثا فأمليت ألف حديث لألف رجل ممن كتبت عنهم.

قال أبو جعفر: سمعت أبا عمر سليم بن مجاهد يقول: كنت عند محمد بن سلام البيكندي فقال: لو جئت قبل لرأيت صبيا يحفظ سبعين ألف حديث، قال: فخرجت في طلبه حتى لحقته، قال: أنت الذي

يقول: إني أحفظ سبعين ألف حديث؟ قال: نعم وأكثر، ولا أجيئك بحديث من الصحابة والتابعين إلا عرفتك مولد أكثرهم ووفاتهم ومساكنهم ولست أروي حديثا من حديث الصحابة أو التابعين إلا ولي من ذلك أصل أحفظه حفظا عن كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ.

قال محمد بن يعقوب بن الأخرم: سمعت أصحابنا يقولون: لما قدم البخاري نيسابور استقبله أربعة آلاف رجل ركبانًا على الخيل سوى من ركب بغلاً أو حمارًا وسوى الرجالة.

ورعه:

* قال محمد بن أبي حاتم: ركبنا يوما إلى الرمي، فجعلنا نرمي وأصاب سهم أبي عبد الله البخاري وتد القنطرة الذي على نهر ورادة فانشق الوتد، فلما رآه أبو عبد الله نزل عن دابته، فأخرج السهم من الوتد وترك الرمي، وقال: لنا ارجعوا ورجعنا معه إلى المنزل. فقال لي: يا أبا جعفر لي إليك حاجة مهمة قالها وهو يتنفس الصعداء، وقال لمن معنا اذهبوا مع أبي جعفر حتى تعينوه على ما سألته، فقلت: أية حاجة هي. قال لي: تضمن قضاءها؟ قلت: نعم على الرأس والعين. قال: ينبغي أن تصير إلى صاحب القنطرة، فتقول له: إنا قد أخللنا بالوتد، فنحب أن تأذن لنا في إقامة بدله، أو تأخذ ثمنه وتجعلنا في حل مما كان منا. وكان صاحب القنطرة حميد بن الأخضر الفربري. فقال لي: أبلغ أبا عبد الله السلام، وقل له: أنت في حل مما كان منك وجميع ملكي لك الفداء وإن قلت نفسي أكون قد كذبت، غير أني لم أكن أحب أن تحتشمني في وتد أو في ملكي فأبلغته رسالته فتهلل وجهه واستنار وأظهر سرورا وقرأ في ذلك اليوم على الغرباء نحوا من خمسمائة حديث، وتصدق بثلاث مائة درهم.

* وقال ابن أبي حاتم: ورأيته استلقى على قفاه يومًا ونحن بفربر في تصنيفه كتاب التفسير، وأتعب نفسه ذلك اليوم في كثرة إخراج الحديث، فقلت له: إني أراك تقول: إني ما أثبت شيئًا بغير علم قط منذ عقلت فما الفائدة في الاستلقاء؟ قال: أتعبنا أنفسنا اليوم وهذا ثغر

من الثغور خشيت أن يحدث حدث من أمر الغد فأحببت أن استريح وآخذ أهبة فإن فاجئنا العدو كان بنا حراك.

* وضيفه بعض أصحابه في بستان له وضيفنا معه، فلما جلسنا أعجب صاحب البستان بستانه، وذلك أنه كان عمل مجالس فيه وأجرى الماء في أنهاره فقال له: يا أبا عبد الله كيف ترى؟ فقال هذه الحياة الدنيا.

* وقال أحمد بن حفص: دخلت على أبي الحسن يعني إسماعيل والد أبي عبد الله عند موته، فقال: لا أعلم من مالي درهمًا من حرام ولا درهما من شبهة. قال أحمد: فتصاغرت إلى نفسي عند ذلك، ثم قال أبو عبد الله: أصدق ما يكون الرجل عند الموت.

وكان الحسين بن محمد السمرقندي، يقول: كان محمد بن إسماعيل مخصوصا بثلاث خصال مع ما كان فيه من الخصال المحمودة كان قليل الكلام، وكان لا يطمع فيما عند الناس، وكان لا يشتغل بأمور الناس كل شغله كان في العلم.

عمله بالتجارة:

وعمل البخاري بالتجارة، فكان مثالاً للتاجر الصدوق الذي لا يغش ولا ينقض نيته مهما كانت المغريات. روي أنه حملت إلى البخاري بضاعة أنفذها إليه ابنه أحمد، فاجتمع بعض التجار إليه فطلبوها بربح خمسة آلاف درهم، فقال: انصرفوا الليلة فجاءه من الغد تجار آخرون فطلبوا منه البضاعة بربح عشرة آلاف فقال إني نويت بيعها للذين أتوا البارحة.

ثناء الأئمة عليه:

قال أبو إسحاق السرماري: من أراد أن ينظر إلى فقيه بحقه وصدقه فلينظر إلى محمد بن إسماعيل.

قال أبو جعفر: سمعت يحيى بن جعفر، يقول: لو قدرت أن أزيد في عمر محمد بن إسماعيل من عمري لفعلت، فإن موتي يكون موت رجل واحد وموته ذهاب العلم.

وكان نعيم بن حماد يقول: محمد بن إسماعيل فقيه هذه الأمة.

قال مصعب الزهري: محمد بن إسماعيل أفقه عندنا وأبصر بالحديث.

وروي عن إسحاق بن راهويه أنه كان يقول: اكتبوا عن هذا الشاب يعني البخاري، فلو كان في زمن الحسن لاحتاج إليه الناس لمعرفته بالحديث وفقهه.

وكان على بن حجر، يقول: أخرجت خراسان ثلاثة: أبو زرعة، ومحمد بن إسماعيل، وعبد الله بن عبد الرحمن الدارمي، ومحمد عندي أبصرهم وأعلمهم وأفقههم.

وقال محمد بن أبي حاتم: سمعت إبراهيم بن خالد المروزي، يقول: رأيت أبا عمار الحسين بن حريث يثني على أبي عبد الله البخاري ويقول: لا أعلم أني رأيت مثله كأنه لم يخلق إلا للحديث.

وقال محمد حدثني حاتم بن مالك الوراق قال: سمعت علماء مكة يقولون: محمد بن إسماعيل إمامنا وفقيهنا وفقيه خراسان.

وقال أبو الطيب حاتم بن منصور الكسي يقول: محمد بن إسماعيل آية من آيات الله في بصره ونفاذه من العلم.

وقال سليم بن مجاهد، يقول: لو أن وكيعا، وابن عيينة، وابن المبارك كانوا في الأحياء لاحتاجوا إلى محمد بن إسماعيل.

وروي عن قتيبة بن سعيد أنه قال: لو كان محمد في الصحابة لكان آية. نظرت في الحديث، ونظرت في الرأي، وجالست الفقهاء والزهاد والعباد ما رأيت منذ عقلت مثل محمد بن إسماعيل.

وقال الإمام أحمد بن حنبل: لم يجئنا من خراسان مثل محمد بن إسماعيل.

وقال أبو عبد الله الحاكم: محمد بن إسماعيل البخاري إمام أهل الحديث.

قال أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة: ما رأيت تحت أديم السماء أعلم بحديث رسول الله وأحفظ له من محمد بن إسماعيل.

قال محمد بن حمدون بن رستم: سمعت مسلم بن الحجاج وجاء

إلى البخاري، فقال دعني أقبل رجليك يا أستاذ الأستاذين، وسيد المحدثين وطبيب الحديث في علله.

وقال سعيد بن جعفر: سمعت العلماء بالبصرة يقولون: ما في الدنيا مثل محمد بن إسماعيل في المعرفة والصلاح.

من كرم البخاري وسماحته:

قال محمد بن أبي حاتم: كانت له قطعة أرض يؤجرها كل سنة بسبعمائة درهم، فكان ذلك المؤجر ربما حمل منها إلى أبي عبد الله قثاة أو قثاتين، لأن أبا عبد الله كان معجبًا بالقثاء النضيج، وكان يؤثره على البطيخ أحيانًا، فكان يهب للرجل مائة درهم كل سنة لحمله القثاء إليه أحيانا.

قال: وسمعته يقول: كنت أستغل كل شهر خمس مائة درهم، فأنفقت كل ذلك في طلب العلم، فقلت: كم بين من ينفق على هذا الوجه وبين من كان خلوا من المال فجمع وكسب بالعلم حتى اجتمع له، فقال أبو عبد الله: {وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ} [الشورى: ٣٦].

وكان يتصدق بالكثير يأخذ بيده صاحب الحاجة من أهل الحديث فيناوله ما بين العشرين إلى الثلاثين، وأقل وأكثر من غير أن يشعر بذلك أحد وكان لا يفارقه كيسه.

ويقول عبد الله بن محمد الصارفي: كنت عند أبي عبد الله البخاري في منزله، فجاءته جارية، وأرادت دخول المنزل، فعثرت على محبرة بين يديه فقال لها: كيف تمشين؟ قالت: إذا لم يكن طريق كيف أمشي فبسط يديه وقال لها: اذهبي فقد أعتقتك. قال: فقيل له فيما بعد: يا أبا عبد الله، أغضبتك الجارية؟ قال: إن كانت أغضبتني فإني أرضيت نفسي بما فعلت.

محنة البخاري:

تعرض البخاري للامتحان والابتلاء، وكثيرًا ما تعرض العلماء الصادقون للمحن، فصبروا على ما أوذوا في سبيل الله، ولقد حسد البعض البخاري لما له من مكانة عند العلماء، وطلاب العلم،

وجماهير المسلمين في كل البلاد الإسلامية، فأثاروا حوله الشائعات بأنه يقول بخلق القرآن؛ ولذلك قصة يرويها أبو أحمد بن عدي فيقول: ذكر لي جماعة من المشايخ: أن محمد بن إسماعيل البخاري لما ورد نيسابور اجتمع الناس عليه فحسده بعض من كان في ذلك الوقت من مشايخ نيسابور لما رأوا إقبال الناس إليه واجتماعهم عليه. فقال لأصحاب الحديث: إن محمد بن إسماعيل يقول اللفظ بالقران مخلوق فامتحنوه في المجلس فلما حضر الناس مجلس البخاري قام إليه رجل فقال: يا أبا عبد الله، ما تقول في اللفظ بالقرآن مخلوق؟ هو أم غير مخلوق فأعرض عنه البخاري ولم يجبه، فقال الرجل: يا أبا عبد الله، فأعاد عليه القول فأعرض عنه، ثم قال في الثالثة فالتفت إليه البخاري، وقال: القرآن كلام الله غير مخلوق، وأفعال العباد مخلوقة، والامتحان بدعة فشغب الرجل وشغب الناس وتفرقوا عنه وقعد البخاري في منزله.

وقالوا له بعد ذلك ترجع عن هذا القول حتى نعود إليك، قال: لا أفعل إلا أن تجيئوا بحجة فيما تقولون أقوى من حجتي، وأعجبني من محمد بن إسماعيل ثباته، وكان يقول: أما أفعال العباد فمخلوقة فقد حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا مروان بن معاوية، حدثنا أبو مالك عن ربعي عن حذيفة قال: قال النبي ﷺ :«**إن الله يصنع كل صانع وصنعته**».

وبه قال: وسمعت عبيد الله بن سعيد يقول: سمعت يحيى بن سعيد يقول: ما زلت أسمع أصحابنا يقولون: إن أفعال العباد مخلوقة. قال البخاري: حركاتهم وأصواتهم واكتسابهم وكتابتهم مخلوقة، فأما القرآن المتلو المبين المثبت في المصاحف المسطور المكتوب الموعى في القلوب فهو كلام الله ليس بمخلوق قال الله تعالى{بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ} [العنكبوت: ٤٩].

وقال البخاري: القرآن كلام الله غير مخلوق، ومن قال مخلوق فهو كافر.

وقال أيضا: من زعم من أهل نيسابور وقومس والري وهمذان وحلوان وبغداد والكوفة والبصرة ومكة والمدينة أني قلت: لفظي بالقرآن

مخلوق فهو كذاب فإني لم أقله إلا أني قلت أفعال العباد مخلوقة.

وقال أحمد بن سلمة: دخلت على البخاري، فقلت: يا أبا عبد الله، هذا رجل مقبول بخراسان خصوصا في هذه المدينة، وقد لج في هذا الحديث حتى لا يقدر أحد منا أن يكلمه فيه فما ترى، فقبض على لحيته ثم قال:{وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ } [غافر: ٤٤] اللهم إنك تعلم أني لم أرد المقام بنيسابور أشرا ولا بطرا، ولا طلبا للرئاسة إنما أبت على نفسي في الرجوع إلى وطني لغلبة المخالفين، وقد قصدني هذا الرجل حسدا لما آتاني الله لا غير، ثم قال: لي يا أحمد، إني خارج غدا لتتخلصوا من حديثه لأجلي، فأخبرت جماعة أصحابنا، فو الله ما شيعه غيري كنت معه حين خرج من البلد، وأقام على باب البلد ثلاثة أيام لإصلاح أمره.

وقال محمد بن أبي حاتم: أتى رجل عبد الله البخاري، فقال: يا أبا عبد الله، إن فلانا يكفرك فقال: قال النبي ﷺ:«**إذا قال الرجل لأخيه: يا كافر فقد باء به أحدهما**» وكان كثير من أصحابه يقولون له: إن بعض الناس يقع فيك فيقول:{إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا} [النساء: ٧٦]، ويتلو أيضا:{وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ} [فاطر: ٤٣]، فقال له عبد المجيد بن إبراهيم: كيف لا تدعو الله على هؤلاء الذين يظلمونك ويتناولونك ويبهتونك؟ فقال: قال النبي ﷺ :«**اصبروا حتى تلقوني على الحوض**» وقال ﷺ :«**من دعا على ظالمه فقد انتصر**».

محنته مع أمير بخارى:

روى أحمد بن منصور الشيرازي، قال: سمعت بعض أصحابنا، يقول: لما قدم أبوعبد الله بخارى نصبت له القباب على فرسخ من البلد واستقبله عامة أهل البلد، حتى لم يبق أحد إلا استقبله ونثر عليه الدنانير والدراهم والسكر الكثير، فبقي أياما قال: فكتب بعد ذلك محمد بن يحيى الذهلي إلى خالد بن أحمد أمير بخارى إن هذا الرجل قد أظهر خلاف السنة، فقرأ كتابه على أهل بخارى، فقالوا: لا نفارقه فأمره الأمير بالخروج من البلد فخرج.

قال أحمد بن منصور: فحكى لي بعض أصحابنا، عن إبراهيم بن معقل النسفي، قال: رأيت محمد بن إسماعيل في اليوم الذي أخرج فيه من بخارى، فتقدمت إليه، فقلت: يا أبا عبد الله، كيف ترى هذا اليوم من اليوم الذي نثر عليك فيه ما نثر؟ فقال: لا أبالي إذا سلم ديني.

وروي عن بكر بن منير بن خليد بن عسكر أنه قال: بعث الأمير خالد بن أحمد الذهلي والي بخارى إلى محمد بن إسماعيل أن احمل إليَّ كتاب الجامع والتاريخ وغيرهما لأسمع منك، فقال لرسوله: أنا لا أذل العلم، ولا أحمله إلى أبواب الناس، فإن كانت لك إلى شيء منه حاجة فاحضر في مسجدي أو في داري، وإن لم يعجبك هذا فإنك سلطان فامنعني من المجلس ليكون لي عذر عند الله يوم القيامة لأني لا أكتم العلم لقول النبي ﷺ :«من سئل عن علم فكتمه ألجم بلجام من نار» فكان سبب الوحشة بينهما هذا.

وفاة البخاري:

توفي البخاري - رحمه الله - ليلة عيد الفطر سنة ست وخمسين ومائة وقد بلغ اثنتين وستين سنة، وروي في قصة وفاته عدة روايات منها:

قال محمد بن أبي حاتم: سمعت أبا منصور غالب بن جبريل وهو الذي نزل عليه أبو عبد الله يقول: إنه أقام عندنا أياما فمرض واشتد به المرض، فلما وافى تهيأ للركوب فلبس خفيه وتعمم فلما مشى قدر عشرين خطوة أو نحوها وأنا آخذ بعضده ورجل آخذ معي يقوده إلى الدابة ليركبها، فقال رحمه الله: أرسلوني فقد ضعفت فدعا بدعوات ثم اضطجع فقضى رحمه الله، فسال منه العرق شيء لا يوصف فما سكن منه العرق إلى أن أدرجناه في ثيابه، وكان فيما قال لنا وأوصى إلينا: أن كفنوني في ثلاثة أثواب بيض ليس فيها قميص ولا عمامة، ففعلنا ذلك، فلما دفناه فاح من تراب قبره رائحة غالية أطيب من المسك فدام ذلك أياما: ثم علت سواري بيض في السماء مستطيلة بحذاء قبره فجعل الناس يختلفون ويتعجبون، وأما التراب فإنهم كانوا يرفعون عن القبر حتى ظهر القبر ولم نكن نقدر على

حفظ القبر بالحراس وغلبنا على أنفسنا فنصبنا على القبر خشبًا مشبكًا لم يكن أحد يقدر على الوصول إلى القبر فكانوا يرفعون ما حول القبر من التراب، ولم يكونوا يخلصون إلى القبر، وأما ريح الطيب فإنه تداوم أيامًا كثيرة حتى تحدث أهل البلدة وتعجبوا من ذلك وظهر عند مخالفيه أمره بعد وفاته وخرج بعض مخالفيه إلى قبره، وأظهروا التوبة والندامة مما كانوا شرعوا فيه من مذموم المذهب.

قال محمد بن أبي حاتم: ولم يعش أبو منصور غالب بن جبريل بعده إلا القليل وأوصى أن يدفن إلى جنبه.

وقال محمد بن محمد بن مكي الجرجاني: سمعت عبد الواحد بن آدم الطواويسي، يقول: رأيت النبي ﷺ في النوم ومعه جماعة من أصحابه وهو واقف في موضع، فسلمت عليه فرد عليَّ السلام، فقلت: ما وقوفك يا رسول الله؟ قال: أنتظر محمد بن إسماعيل البخاري فلما كان بعد أيام بلغني موته فنظرت فإذا قد مات في الساعة التي رأيت النبي ﷺ فيها.

رحم الله الإمام البخاري رحمة واسعة وجزاه الله خيرًا عن الإسلام والمسلمين وعن حديث رسول الله (ﷺ) [1].

* * *

(١) المصدر: كتاب جامع الأصول، سير أعلام النبلاء، تاريخ بخارى، مقدمة صحيح البخاري.

الإمام مسلم

من مشاهير أعلام المسلمين

الإمام مسلم

هو الإمام الكبير الحافظ المجود، الحجة الصادق، أبو الحسين مسلم ابن الحجاج النيسابوري، ولد بمدينة نيسابور سنة ٢٠٦هـ وتوفي بها سنة ٢٦١ هـ. رحل إلى الحجاز ومصر والشام والعراق في طلب الحديث، وكان أحد أئمة الحديث وحفاظه، اعترف علماء عصره ومن بعدهم له بالتقدم والإتقان في هذا العلم، من شيوخه الكبار إسحاق بن راهويه، وأحمد بن حنبل، وسعيد بن منصور، وغيرهم، ومن الذين رووا عنه الترمذي، وأبو حاتم الرازي وابن خزيمة.

وكان إمامًا جليلاً مهابًا، غيورًا على السنة ذابًّا عنها، تتلمذ على البخاري وأفاد منه ولازمه، وهجر من أجله من خالفه، وكان في غاية الأدب مع إمامه البخاري حتى قال له يومًا: دعني أقبل رجلك يا إمام المحدثين وطبيب الحديث وعلله.

ثناء العلماء عليه:

أثنى أئمة العلم على الإمام مسلم، وقدمه أبو زرعة، وأبو حاتم على أئمة عصره. وقال شيخه محمد بن عبد الوهاب الفراء: كان مسلم من علماء الناس وأوعية العلم، ما علمته إلا خيراً، وقال مسلمة بن قاسم: ثقة جليل القدر من الأئمة، وقال النووي: أجمعوا على جلالته وإمامته، وعلو مرتبته وحذقه في الصنعة وتقدمه فيها.

مؤلفاته المطبوعة:

* صحيح مسلم

* التمييز، وهو كتاب في علل الحديث.
* الكنى والأسماء.
* المنفردات والوحدان.

وله كتب مفقودة، منها:

* طبقات التابعين ورجال عروة بن الزبير.
* أولاد الصحابة.
* الإخوة والأخوات.
* الأقران.
* أوهام المحدثين.
* ذكر أولاد الحسين.
* مشايخ مالك.
* مشايخ الثوري.
* ومشايخ شعبة.

وفاته:

ظل الإمام مسلم بن الحجاج بنيسابور يقوم بعقد حلقات العلم التي يؤمها طلابه والمحبون لسماع أحاديث النبي ﷺ، ومن أشهر تلاميذه الذين رحلوا إليه أبو عيسى الترمذي، ويحيى بن صاعد، وابن خزيمة وأبو بكر محمد بن النضر الجارودي وغيرهم، كما شغل وقته بالتأليف والتصنيف حتى إن الليلة التي توفي فيها كان مشغولا بتحقيق مسألة علمية عرضت له في مجلس مذاكرة، فنهض لبحثها وقضى ليله في البحث، لكنه لقي ربه قبل أن ينبلج الصباح في ٢٥ من رجب ٢٦١ هـ = ٦ من مايو ٨٧٥م، وهو في الخامسة والخمسين من عمره، ودفن يوم الاثنين في مقبرته بنصر آباد في نيسابور

كتابه الصحيح:

صنَّف الإمام مسلم كتبًا كثيرة، وأشهرها صحيحه الذي صنفه في خمس عشرة سنة، وقد تأسى في تدوينه بالبخاري رحمه الله فلم يضع فيه إلا ما صح عنده.

وقد جمع مسلم في صحيحه روايات الحديث الواحد في مكان واحد لإ براز الفوائد الاسنادية في كتابه، ولذلك فإنه يروي الحديث في أنسب المواضع به ويجمع طرقه وأسانيده في ذلك الموضع، بخلاف البخاري فإنه فرق الروايات في مواضع مختلفة، فصنيع مسلم يجعل كتابه أسهل تناولاً، حيث تجد جميع طرق الحديث ومتونه في موضع واحد، وصنيع البخاري أكثر فقهًا؛ لأنه عني ببيان الأحكام، واستنباط الفوائد والنكات، مما جعله يذكر كل رواية في الباب الذي يناسبها، ففرق روايات الحديث، ويرويه في كل موطن بإسناد جديد أيضًا.

وكتاب صحيح مسلم مقسم إلى كتب، وكل كتاب يقسم إلى أبواب، وعدد كتبه ٥٤ كتابًا، أولها كتاب الإيمان، وآخرها كتاب التفسير.

وعدد أحاديثه بدون المكرر نحو ٤٠٠٠ حديث، وبالمكرر نحو ٧٢٧٥ حديثًا.

من شروح صحيح الإمام مسلم:

(١) المنهاج في شرح الجامع الصحيح للحسين بن الحجاج:

وهو شرح للإمام النووي الشافعي المتوفى سنة (٦٧٦هـ)، وهو شرح وسط جمع عدة شروح سبقته، ومن أشهر شروح صحيح مسلم.

(٢) المعلم بفوائد كتاب صحيح مسلم:وهو شرح المازري أبي عبد الله محمد بن على المتوفى سنة ٥٣٦ هـ.

(٣) إكمال المعلم في شرح صحيح مسلم: وهو شرح للقاضي

عياض بن موسى اليحصبي السبتي إمام المغرب المالكي المتوفى سنة (٥٤٤هـ).

(٤) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم: شرح أبي العباس أحمد بن عمر بن إبراهيم القرطبي المتوفى سنة (٦١١هـ).

(٥) إكمال إكمال المعلم: وهو شرح الأبي المالكي وهو أبو عبد الله محمد بن خليفة من أهل تونس - والأبي نسبة إلى " أبة " من قرى تونس - المتوفى سنة (٧٢٨هـ)، جمع في شرحه بين المازري وعياض والقرطبي والنووي.

(٧) الديباج على صحيح مسلم بن الحجاج:وهو شرح جلال الدين السيوطي المتوفى عام (٩١١هـ).

(٦) شرح شيخ الإسلام زكريا الأنصاري الشافعي المتوفى (٩٢٦هـ).

(٥) شرح الشيخ على القاري الحنفي نزيل مكة المتوفى سنة (١٠١٦هـ) وشرحه في أربع مجلدات.. [١].

* * *

(١) المصدر: كتاب جامع الأصول.

الإمام أبو داود

من مشاهير أعلام المسلمين

الإمام أبـو داود

هو سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو بن عمران الأزدي السجستاني، أحد من رحل وطوف، وجمع وصنف، وكتب عن العراقيين والخراسانيين والشاميين والمصريين والجزريين.

ولد سنة اثنتين ومائتين، وتوفي بالبصرة لأربع عشرة بقيت من شوال سنة خمس وسبعين ومائتين.

وقدم بغداد مرارًا، ثم خرج منها آخر مرَّاته سنة إحدى وسبعين.

وأخذ الحديث عن مسلم بن إبراهيم، وسليمان بن حرب، وعثمان ابن أبي شيبة، وأبي الوليد الطيالسي، وعبد الله بن مسلمة القعنبي، ومسدد بن مسَرْهد، ويحيى بن معين، وأحمد بن حنبل، وقتيبة بن سعيد، وأحمد بن يونس، وغير هؤلاء من أئمة الحديث، ممن لا يحصى كثرة.

وأخذ الحديث عنه: ابنه عبد الله، وأبو عبد الرحمن النسائي، وأحمد ابن محمد الخلال، وأبو على محمد بن عمرو اللؤلؤي، ومن طريقه نروي كتابه. وكان أبو داود يسكن البصرة.

وقدم بغداد، وروى كتابه المصنف في " السنن " بها. ونقلها أهلها عنه، وصنفه قديمًا، وعرضه على أحمد بن حنبل، فاستجابه واستحسنه.

قال أبو بكر بن داسة: قال أبو داود: كتبت عن رسول الله ﷺ خمسمائة ألف حديث، انتخبت منها ما ضمنته هذا الكتاب - يعني

كتاب " السنن " - جمعت فيه أربعة آلاف حديث وثمانمائة حديث. ذكرت الصحيح، وما يُشبهه ويقاربه، ويكفي الإنسان لدينه من ذلك أربعة أحاديث.

أحدها: قوله عليه الصلاة والسلام: «إنما الأعمال بالنيات».

والثاني: قوله ﷺ: «مِنْ حُسنِ إسلام المرء تِركهُ ما لا يعنيه».

والثالث: قوله ﷺ: «لا يكوُن المؤمن مؤمنًا حتى يرضى لأخيه ما يرضاه لنفسه».

والرابع: قوله ﷺ: «إن الحلال بين، وإن الحرام بين، وبينهما أمور مشتبهات...» الحديث.

وقال أبو بكر الخلال: أبو داود، سليمان بن الأشعث، الإمام المقدم في زمانه، رجل لم يسبقه إلى معرفته بتخريج العلوم وبصره بمواضعها أحد في زمانه، رجل ورع مقدم.

وكان إبراهيم الأصفهاني، وأبو بكر بن صدقة، يرفعان من قدره، ويذكرانه بما لا يذكران أحدًا في زمانه بمثله.

وقال أحمد بن حنبل بن ياسين الهروي: كان سليمان بن الأشعث، أبو داود، أحد حفاظ الإسلام لحديث رسول الله ﷺ: عِلمِهِ وعلله وسنده، وكان في أعلى درجة من النسك والعفاف، والصلاح والورع، من فرسان الحديث.

وقال محمد بن أبي بكر بن عبد الرزاق: كان لأبي داود كُمٌّ واسع وكُمٌّ ضيِّق، فقيل له: يرحمك الله! ما هذا؟ قال: الواسع للكتب، والآخر لا نحتاج إليه.

وقال أبو سليمان الخطابي: كتاب " السنن " لأبي داود، كتاب شريف لم يصنف في علم الدين كتاب مثله، وقد رزق القبول من كافة الناس، على اختلاف مذاهبهم، فصار حكمًا بين فرق العلماء، وطبقات الفقهاء، فلكل فيه رود، ومنه شرب، وعليه معول أهل

العراق ومصر وبلاد المغرب، وكثير من مدن أقطار الأرض، فأما أهل خراسان، فقد أولع أكثرهم بكتاب محمد بن إسماعيل البخاري، وكتاب مسلم بن الحجاج النيسابوري.

وقال: قال أبوداود: ما ذكرت في كتابي حديثًا اجتمع الناس على تركه.

وكان تصنيف علماء الحديث قبل زمان أبي داود: " الجوامع "و " المسانيد "، ونحوهما، فتجمع تلك الكتب - إلى ما فيها من " السنن " و " الأحكام " -: أخبارًا وقصصًا، ومواعظ وأدبًا. فأما " السنن " المحضة، فلم يقصد أحد منهم إفرادها واستخلاصها من أثناء تلك الأحاديث، ولا اتفق له ما اتفق لأبي داود، ولذلك حل هذا الكتاب عند أئمة الحديث وعلماء الأثر مَحَلَّ العجب، فضربت إليه أكباد الإبل، ورامت إليه الرحل.

قال إبراهيم الحربي: لما صنف أبو داود هذا الكتاب: ألين لأبي داود الحديث، كما ألين لداود عليه السلام الحديد [1].

* * *

(١) المصدر:كتاب جامع الأصول.

الإمام الترمذي

من مشاهير أعلام المسلمين

الإمام الترمذي

هو أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة بن موسى بن الضحاك السلمي الترمذي ولد (سنة تسع ومائتين).

وتوفي بـ " ترمذ " ليلة الاثنين الثالث عشر من شهر رجب سنة تسع وسبعين ومائتين، وهو أحد العلماء الحفاظ الأعلام، وله في الفقه يد صالحة.

أخذ الحديث عن جماعة من أئمة الحديث، ولقي الصدر الأول من المشايخ. مثل قتيبة بن سعيد، وإسحاق بن موسى، ومحمود بن غيلان، وسعيد بن عبد الرحمن، ومحمد بن بشار، وعلي بن حُجر، وأحمد بن منيع، ومحمد بن المثنى، وسفيان بن وكيع، ومحمد بن إسماعيل البخاري، وغير هؤلاء، وأخذ عن خلق كثير لا يُحصون كثرة.

وأخذ عنه خلق كثير، منهم محمد بن أحمد بن محبوب المحبوبي المروزي، ومن طريقه روينا كتابه " الجامع ".

وله تصانيف كثيرة في علم الحديث، وهذا كتابه " الصحيح " أحسن الكتب وأكثرها فائدة، وأحسنها ترتيبًا، وأقلها تكرارًا، وفيه ما ليس في غيره: من ذكر المذاهب، ووجوه الاستدلال، وتبيين أنواع الحديث من الصحيح، والحسن، والغريب، وفيه جرح وتعديل، وفي آخره كتاب " العلل "، قد جمع فيه فوائد حسنة لا يخفى قدرها من وقف عليها.

قال الترمذي (رحمه الله تعالى): صنفت هذا الكتاب فعرضته

علـى علمـاء الحجـاز فرضـوا بـه، وعرضـته علـى علمـاء العـراق فرضوا به، وعرضته على علماء خراسان فرضوا به، ومن كـان فـي بيته هذا الكتاب، فكأنما في بيته نبي يتكلم.

وقال الترمذي: كان جدي مروزيًّا انتقل من مَرْو، أيام الليث بن سيار.

* * *

الليث بن سعد

من مشاهير أعلام المسلمين

الإمام الحافظ الليث بن سعد

من أشهر الفقهاء في زمانه، فاق في علمه وفقهه إمام المدينة الإمام مالك غير أن تلامذته لم يقوموا بتدوين علمه وفقهه ونشره في الآفاق مثلما فعل تلامذة الإمام مالك، وكان الإمام الشافعي يقول: الليث أفقه من مالك إلا أن أصحابه لم يقوموا به.

إنه الإمام الليث بن سعد بن عبد الرحمن الإمام الحافظ شيخ الإسلام وعالم الديار المصرية ولد بقرقشندة وهي قرية من أسفل أعمال مصر في سنة أربع وتسعين للهجرة.

طلبه للعلم:

تلقى الليث العلم على عدد من كبار علماء عصره، فسمع من عطاء بن أبي رباح، وابن أبى مليكة ونافع العمري، وسعيد بن أبي سعيد المقبري، وابن شهاب الزهري، وأبا الزبير المكي وغيرهم كثير.

وفي عدة روايات يصف الليث رحلاته في طلب العلم: قال ابن بكير: سمعت الليث، يقول: سمعت بمكة سنة ثلاث عشرة ومائة من الزهري، وأنا ابن عشرين سنة.

قال يحيى بن بكير: أخبرني من سمع الليث يقول: كتبت من علم ابن شهاب علما كثيرا، وطلبت ركوب البريد إليه إلى الرصافة، فخفت ألاَّ يكون ذلك لله، فتركته ودخلت على نافع، فسألني، فقلت: أنا مصري، فقال: ممن قلت؟ من قيس. قال: ابن كم؟ قلت: ابن عشرين سنة. قال: أما لحيتك فلحية ابن أربعين.

قال أبو صالح خرجت مع الليث إلى العراق سنة إحدى وستين ومائة خرجنا في شعبان وشهدنا الأضحى ببغداد قال وقال لي الليث ونحن ببغداد سل عن منزل هشيم الواسطي فقل له: أخوك ليث المصري يقرئك السلام، ويسألك أن تبعث إليه شيئا من كتبك، فلقيت هشيمًا، فدفع إلى شيئًا، فكتبنا منه وسمعتها مع الليث.

مكانته العلمية:

يقول الحافظ أبو نعيم: كان الليث رحمه الله فقيه مصر، ومحدثها ومحتشمها ورئيسها، ومن يفتخر بوجوده الإقليم بحيث إن متولي مصر وقاضيها وناظرها من تحت أوامره ويرجعون إلى رأيه ومشورته ولقد أراده المنصور على أن ينوب له على الإقليم فاستعفى من ذلك.

ولليث أحاديث كثيرة في كتب الصحاح، ومن الأحاديث التي رويت عن الليث ما رواه الترمذي، قال: حدثنا الليث عن يزيد بن أبي حبيب، عن سعد بن سنان، عن أنس بن مالك: أن رسول الله ﷺ قال: «**يكون بين يدي الساعة فتن كقطع الليل المظلم يصبح الرجل فيها مؤمنًا ويمسي كافرًا، ويمسي مؤمنًا، ويصبح كافرًا يبيع أقوام دينهم بعرض من الدنيا**».

قال أبو صالح كان الليث يقرأ بالعراق من فوق على أصحاب الحديث والكتاب بيدي، فإذا فرغ رميت به إليهم فنسخوه.

قال ابن سعد كان الليث قد استقل بالفتوى في زمانه.

روى عبد الملك بن شعيب، عن أبيه، قال: قيل لليث: أمتع الله بك إنا نسمع منك الحديث ليس في كتبك، فقال: أو كل ما في صدري في كتبي، لو كتبت ما في صدري ما وسعه هذا المركب.

وقال عبد الله بن أحمد: سمعت أبي يقول: أصح الناس حديثا عن سعيد المقبري الليث بن سعد يفصل ما روي، عن أبي هريرة، وما روي عن أبيه، عن أبي هريرة هو ثبت في حديثه جدًّا.

ومما يروى عنه أيضا عن الليث بن سعد عن هشام بن عروة عن أبيه عن أسماء بنت أبي بكر قالت: لقد رأيت زيد بن عمرو بن نفيل قائما مسندا ظهره إلى الكعبة، يقول: يا معشر قريش، والله ما فيكم أحد على دين إبراهيم غيري، وكان يحيى الموؤدة يقول الرجل إذا أراد أن يقتل ابنته: مه لا تقتلها، أنا أكفيك مؤنتها، فيأخذها، فإذا ترعرعت قال لأبيها: إن شئت دفعتها إليك وإن شئت كفيتك مؤنتها.

ولليث أسانيد إلى أبي هريرة ومنها: عن الليث عن سعيد المقبري عن أبيه، عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة سنة».

مناقبه وفضائله:

قال ابن بكير: كان الليث فقيه البدن، عربي اللسان، يحسن القرآن والنحو، ويحفظ الحديث، والشعر حسن المذاكرة.

روي عن شرحبيل بن جميل قال: أدركت الناس أيام هشام الخليفة وكان الليث بن سعد حدث السن، وكان بمصر عبيد الله بن أبي جعفر وجعفر بن ربيعة والحارث بن يزيد ويزيد بن أبي حبيب، وابن هبيرة وإنهم يعرفون لليث فضله وورعه وحسن إسلامه عن حداثة سنة ثم قال ابن بكير: لم أر مثل الليث، وروى عبد الملك بن يحيى بن بكير عن أبيه قال: ما رأيت أحدا أكمل من الليث.

قال عثمان بن صالح: كان أهل مصر ينتقصون عثمان حتى نشأ فيهم الليث، فحدثهم بفضائله، فكفوا، وكان أهل حمص ينتقصون عليًّا حتى نشأ فيهم إسماعيل بن عياش، فحدثهم بفضائل على، فكفوا عن ذلك، وروي عن حرملة يقول: كان الليث بن سعد يصل مالكا بمائة دينار في السنة، فكتب مالك إليه على دين، فبعث إليه بخمس مائة دينار فسمعت ابن وهب يقول: كتب مالك إلى الليث إني أريد أن أدخل بنتي على زوجها، فأحب أن تبعث لي بشيء من عصفر، فبعث إليه بثلاثين حملا عصفرا، فباع منه بخمس مائة دينار، وبقي

عنده فضله، قال أبو داود: قال قتيبة: كان الليث يستغل عشرين ألف دينار في كل سنة، وقال: ما وجبت على زكاة قط وأعطى الليث ابن لهيعة ألف دينار، وأعطى مالكا ألف دينار، وأعطى منصور بن عمار الواعظ ألف دينار، وجارية تساوى ثلاث مائة دينار.

قال صالح بن أحمد الهمذاني: قدم منصور بن عمار على الليث فوصله بألف دينار واحترقت دار ابن لهيعة فوصله بألف دينار ووصل مالكا بألف دينار وكساني قميص سندس فهو عندي.

وروي عن محمد بن رمح يقول: كان دخل الليث بن سعد في كل سنة ثمانين ألف دينار ما أوجب الله عليه زكاة درهم قط،

وروي عن أشهب بن عبد العزيز يقول: كان الليث له كل يوم أربعة مجالس يجلس فيها، أما أولها فيجلس للسلطان في نوائبه وحوائجه، وكان الليث يغشاه السلطان، فإذا أنكر من القاضي أمرا، أو من السلطان كتب إلى أمير المؤمنين فيأتيه العزل، ويجلس لأصحاب الحديث، وكان يقول: نجحوا أصحاب الحوانيت، فإن قلوبهم معلقة بأسواقهم، ويجلس للمسائل يغشاه الناس، فيسألونه، ويجلس لحوائج الناس لا يسأله أحد فيرده كبرت حاجته أو صغرت، وكان يطعم الناس في الشتاء الهرائس بعسل النحل وسمن البقر، وفي الصيف سويق اللوز في السكر.

وروي عن يعقوب ابن داود وزير المهدي قال:قال أمير المؤمنين: لما قدم الليث العراق الزم هذا الشيخ فقد ثبت عندي أنه لم يبق أحد أعلم بما حمل منه.

وكان الليث بن سعد يقول: بلغت الثمانين، وما نازعت صاحب هوى قط، ويعلق الحافظ أبو نعيم على قوله فيقول: كانت الأهواء والبدع خاملة في زمن الليث ومالك والأوزاعي والسنن ظاهرة عزيزة فأما في زمن أحمد بن حنبل وإسحاق وأبي عبيد فظهرت البدعة وامتحن أئمة الأثر ورفع أهل الأهواء رؤوسهم بدخول الدولة

معهم فاحتاج العلماء إلى مجادلتهم بالكتاب والسنة ثم كثر ذلك واحتج عليهم العلماء أيضا بالمعقول فطال الجدال واشتد النزاع وتولدت الشبة نسأل الله العافية.

قال بكر بن مضر: قدم علينا كتاب مروان بن محمد إلى حوثرة والى مصر إني قد بعثت إليكم أعرابيًّا بدويًّا فصيحًا من حاله ومن حاله فأجمعوا له رجلا يسدده في القضاء ويصوبه في المنطق فأجمع رأي الناس على الليث بن سعد وفي الناس معلماه يزيد بن أبي حبيب وعمرو بن الحارث، قال أحمد بن صالح: أعضلت الرشيد مسألة فجمع لها فقهاء الأرض حتى أشخص الليث فأخرجه منها.

مواقف من حياته:

قال الحسن بن يوسف بن مليح، سمعت أبا الحسن الخادم قال: كنت غلاما لزبيدة (زوجة الرشيد) وأتي بالليث بن سعد تستفتيه فكنت واقفا على رأس ستي زبيدة خلف الستارة، فسأله الرشيد فقال له: حلفت إن لي جنتين فاستحلفه الليث ثلاثا إنك تخاف الله فحلف له فقال: قال الله:{وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾} [الرحمن: ٤٦] فأقطعه الرشيد قطائع كثيرة بمصر.

وروي عن الليث قال: قال لي أبو جعفر المنصور: تلي لي مصر؟ قلت: لا يا أمير المؤمنين، إني أضعف عن ذلك، إني رجل من الموالي. فقال: ما بك ضعف معي، ولكن ضعفت نيتك في العمل لي.

قال: وجاءت امرأة إلى الليث، فقالت: يا أبا الحارث، إن ابنا لي عليلاً واشتهى عسلا، فقال: يا غلام أعطها مرطا من عسل، والمرط عشرون ومائة رطل.

وعن الحارث بن مسكين، قال: اشترى قوم من الليث ثمرة فاستغلوها، فاستقالوا فأقالهم ثم دعا بخريطة فيها أكياس فأمر لهم بخمسين دينارا فقال له ابنه الحارث في ذلك فقال: اللهم غفرا إنهم قد

كانوا أملوا فيها أملا فأحببت أن أعوضهم من أملهم بهذا.

وروي عن الليث قال: لما ودعت أبا جعفر المنصور ببيت المقدس قال: أعجبني ما رأيت من شدة عقلك والحمد لله الذي جعل في رعيتي مثلك، قال شعيب: كان أبي يقول: لا تخبروا بهذا ما دمت حيا.

قال يحيى بن بكير: قال الليث: قال لي المنصور: تلي مصر؟؛ فاستعفيت، قال: أما إذا أبيت فدلني على رجل أقلده مصر، قلت: عثمان ابن الحكم الجذامي رجل له صلاح وله عشيرة. قال: فبلغ عثمان ذلك فعاهد الله ألا يكلم الليث.

وروي عن سعيد الآدم، قال: مررت بالليث بن سعد فتنحنح، فرجعت إليه، فقال لي: يا سعيد، خذ هذا القنداق، فاكتب لي فيه من يلزم المسجد ممن لا بضاعة له ولا غلة. فقلت: جزاك الله خيرًا يا أبا الحارث. وأخذت منه القنداق ثم صرت إلى المنزل فلما صليت أوقدت السراج وكتبت بسم الله الرحمن الرحيم ثم قلت فلان ابن فلان ثم بدرتني نفسي. فقلت: فلان ابن فلان. قال: فبينا أنا على ذلك إذا أتاني آت فقال: هالله يا سعيد تأتي إلى قوم عاملوا الله سرًّا فتكشفهم لآدمي ما الليث وما شعيب أليس مرجعهم إلى الله الذي عاملوه. فقمت ولم أكتب شيئًا، فلما أصبحت أتيت الليث فتهلل وجهه فناولته القنداق فنشره فما رأى فيه غير بسم الله الرحمن الرحيم فقال: ما الخبر فأخبرته بصدق عما كان فصاح صيحة فاجتمع عليه الناس من الحلق فسألوه فقال ليس إلا خير ثم أقبل على فقال: يا سعيد: تبينتها وحرمتها صدقت ما الليث وما شعيب أليس مرجعهم إلى الله.

عن أبي صالح كاتب الليث قال: كنا على باب مالك فامتنع عن الحديث، فقلت: ما يشبه هذا صاحبنا، فسمعها مالك فأدخلنا، وقال: من صاحبكم؟ قلت: الليث. قال تشبهونا برجل كتبت إليه في قليل عصفر نصبغ به ثياب صبياننا فأنفذ منه ما بعنا فضلته بألف دينار.

ثناء العلماء عليه:

كان الإمام الشافعي يقول: الليث أفقه من مالك إلا أن أصحابه لم يقوموا به.

وقال ابن وهب: لولا مالك والليث لضل الناس.

وقال عبد الله بن صالح: صحبت الليث عشرين سنة لا يتغدى ولا يتعشى إلا مع الناس، وكان لا يأكل إلا بلحم إلا أن يمرض.

وقال أحمد بن سعد الزهري: سمعت أحمد بن حنبل يقول: الليث ثقة ثبت، وقال أيضا: الليث كثير العلم صحيح الحديث.

وقال عثمان الدارمي: سمعت يحيى بن معين يقول: الليث أحب إلى من يحيى بن أيوب ويحيى ثقة، قلت: فكيف حديثه عن نافع؟ فقال: صالح ثقة.

وعن أحمد بن صالح وذكر الليث فقال: إمام قد أوجب الله علينا حقه لم يكن بالبلد بعد عمرو بن الحارث مثله.

قال ابن سعد: استقل الليث بالفتوى، وكان ثقة كثير الحديث، سريا من الرجال، سخيا له ضيافة.

وقال العجلي والنسائي: الليث ثقة.

وقال ابن خراش: صدوق صحيح الحديث.

وروي عن يحيى بن معين قال: هذه رسالة مالك إلى الليث، حدثنا بها عبد الله بن صالح يقول فيها: وأنت في إمامتك وفضلك ومنزلتك من أهل بلدك وحاجة من قبلك إليك واعتمادهم على ما جاءهم منك.

وقال يحيى بن بكير: الليث أفقه من مالك، ولكن الحظوة لمالك رحمه الله.

قال عليَّ بن المديني: الليث ثبت.

قال العلاء بن كثير: الليث بن سعد سيدنا وإمامنا وعالمنا.

وفاته:

قال يحيى بن بكير وسعيد بن أبي مريم مات الليث للنصف من شعبان سنة خمس وسبعين ومائة، قال يحيى: يوم الجمعة وصلى عليه موسى بن عيسى.

قال خالد بن عبد السلام الصدفي: شهدت جنازة الليث بن سعد مع والدي فما رأيت جنازة قط أعظم منها رأيت الناس كلهم عليهم الحزن وهم يعزي بعضهم بعضًا ويبكون فقلت: يا أبت، كأن كل واحد من الناس صاحب هذه الجنازة، فقال: يا بني لا ترى مثله أبدًا[1].

* * *

(١) المصدر: كتاب جامع الأصول.

الحافظ البيهقي

من مشاهير أعلام المسلمين

الحافظ البيهقي

ولد أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي بن عبد الله بن موسى البيهقي في شعبان سنة أربع وثمانين وثلاثمائة بقرية - خسرو جرد - وعاش أربعاً وسبعين سنة وتوفي سنة ثمان وخمسين وأربعمائة في نيسابور وحمل منها إلى (بيهق) فدفن بها [1].

وقد عاش في زمن عاصف بالفتن التي ضربت أمواجها بلاد الإسلام فابتلى المسلمون بلاءً عظيماً وصاروا طوائف وأحزاباً يطعن بعضهم في بعض حتى طمع فيهم أعداؤهم وهاجم ملك الروم بلاد الشام بجيوشه الجرارة على حين غفلة من المسلمين.

ولولا ما قدر في كتاب لجاز البلاد والأموال وصدّع الصرح الشامخ الذي بناه رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه.

وفي الوقت الذي يهاجم الروم فيه الشام تحاصر مدينة البصرة ويباع نصف مدينة (الرها) بعشرين ألف دينار، ويدخل طغرلبك مدينة نيسابور وخراسان وما جاورها، وتتجدد الفتن في كل وقت وحين بين أهل السنة من جهة والشيعة والرافضة من جهة أخرى عمّ الذعر قلوب الناس وتخلخل الأمن ونهب الأتراك كل من ورد إلى بغداد فشاع الغلاء وقلّ المورد، ولعن الخطباء الرافضة والأشاعرة على المنابر ونحي عن المناصب الشافعية فضج أهل خراسان وأرسل البيهقي رسالته إلى عميد عبد الملك الكندري التي دافع فيها عن أهل السنة عامة وعن الأشعري وما نسب إليه خاصة دفاعاً قوياً لم يترك

(١) تذكرة الحفاظ، ١١٤٣/٣، طبقات الشافعية الكبرى، ٣/٣.

في نفس الوزير الكندري إلا أثراً عكسيًّا فتمادى في ظلمه وعد وأنه ولم يأبه بكل ما كتب إليه حتى مات (طغرلبك) وانتقل الأمر من بعده إلى ابن أخيه (ألب أرسلان) الذي نقم على الكندري أعماله فقبض عليه وقتله وأسند أمر الوزارة إلى (نظام الملك) الذي انتصر للشافعية وأبطل ما كان من سب الأشعرية[1].

وليس مهمّاً أن تُعدد الحوادث بقدر الاهتمام بمعرفة مدى تأثيرها على نفسه المملوءة إيماناً وورعاً ونزاهة وحباً للسنة، التي نصب نفسه للدفاع عنها والتمسك بها فجمع كل ما تحصل عليه ليجعل منه منهجاً يتسم بالتمسك بعرى وثيقة تستمد الهدي من مشكاة النبوة فتكشف الظلام الكثيف الذي هيمن على ربوع الأرض وأحاطها من كل جانب بسبب المطاحنة المذهبية والتعصبات الجاهلية.

وهكذا نراه يمضي قُدماً في ترسيخ الأسس التي قام عليها صرح الإسلام فألف الكتب وجمع فيها ما لم يتهيأ لغيره جمعه فاستوعب الكثير مما يتعلق بالعقائد والسنة والفقه. وكان جل اهتمامه متابعة ما أثر عن الشافعي بعد أن ثبت له تمسكه بالكتاب والسنة وأنه فاق غيره في ذلك.

ولم يكن البيهقي بالرجل الذي يطوع النصوص لمذهبه كما فعل غيره وإنما غرضه منها أسمى من أن يتحدث عنه بمثل ذلك.

وليس غريبًا أن يسلك هذا السبيل وهو يتبع إمامًا تمسك بالسنة وأوصى بها ما بلغه منها وما لم يبلغه، حتى علق قوله بثبوت ما خفي عليه منها.

أضف إلى ذلك تلقيه العلم عن أئمة برزوا في مناحي الاجتهاد فكان كل واحد منهم جبلا شامخاً تتحطم عنده أمواج التعصب.

وقد انعكس ذلك على مؤلفاته، فجاءت صورة صادقة للتعبير عما

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ٣٤٩/٧، السيد صقر على، مقدمة كتاب معرفة السنن والآثار ١٨/١.

ينطوي عليه نفسه من حب وإيثار للسنة على غيرها وميول نحو الحق وإن أدى إلى مخالفة الإمام الذي تولى الدفاع عنه، واشتهر بحبه له، فصنف التصانيف لنصرة مذهبه حتى اشتهر عن إمام الحرمين قولته المشهورة: " ما من شافعي المذهب إلا وللشافعي عليه منه، إلا أحمد البيهقي فإن له على الشافعي منه " [1].

وقال الذهبي: " إن البيهقي أول من جمع نصوص الشافعي "، وردّ عليه السبكي ورجح أنه آخر من جمع نصوصه، وأيده السيد أحمد صقر بما نقله عن البيهقي نفسه وأنه ذكر ثلاثة كتب سبقه مؤلفوها إلى جمع نصوص الشافعي فيها والظاهر أن الذهبي قال ذلك في حقه باعتبار استيعابه في مصنفاته أكثر - أو كل - ما في كتب السابقين، وبهذا تجتمع الأقوال التي اتفقت على تفوق البيهقي في هذا المضمار على كل من شارك فيه [2].

صفاته:

قال السبكي: " كان الإمام البيهقي أحد أئمة المسلمين وهداة المؤمنين والدعاة إلى حبل الله المتين، فقيه جليل، حافظ كبير، أصولي نحوي زاهد ورع، قانت لله، قائم بنصرة المذهب أصولاً وفروعاً جبلاً من جبال العلم، أخذ الفقه عن ناصر العمري وقرأ علم الكلام على مذهب الأشعري، ثم اشتغل بالتصنيف بعد أن صار أوحد زمانه وفارس ميدانه، وأحذق المحدثين وأحدهم ذهناً، وأسرعهم فهماً، وأجودهم قريحة " ا. هـ.

وقال ابن ناصر الدين: " كان واحد زمانه، وفرد أقرانه حفظاً واتقاناً، وثقة، وعمدة " ا. هـ.

---

(١) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ٥٨/١، وغيره ممن ترجموا عن البيهقي.

(٢) مقدمه كتاب معرفة السنن والآثار، ٢٥/١. والكتب الثلاثة هي، كتاب (التقريب) للقاسم بن محمد بن على الشاشي (ت في حدود الأربعمائة هـ) وكتاب (جمع الجوامع) لأبي سهل بن العفريس الزوزني تلميذ الأصم. وكتاب (عيون المسائل) لأبي بكر أحمد بن أحمد بن الحسن بن سهل الفارسي ابن سريج. (المرجع السابق ٢٥/١، ٢٦).

وقال ابن خلكان: " كان قانعاً من الدنيا بالقليل " ا. هـ [1].

علمه:

لم تذكر كتب التراجم كيف بدأ البيهقي حياته العلمية كما لم تعطنا فكرة واضحة المعالم عن أسرته وطفولته وكيف نشأ، لكنها لم تغفل اهتمامه وشغفه بالبحث والإطلاع الذي جازبه حدود قريته إلى العراق والجبال والحجاز فتلقى من علمائها الكثير وقد ربي عددهم على المائة.

فأخذ عن شيخه أبي عبد الله الحاكم علم الحديث، وأخذ الفقه عن أبي الفتح ناصر بن محمد العمري المروزي. (ت ٤٤٤هـ).

وقال عبد الغافر: جمع بين علم الحديث والفقه، وبيان علل الحديث.

وقال السمعاني: جمع بين معرفة الحديث والفقه ا. هـ.

ومن الغريب أن يقول الذهبي عنه: " دائرته في الحديث ليست كبيرة لكن بورك له في مروياته ".

على رغم ما لمسناه في كتبه من الإطلاع الواسع والمعرفة التامة بالأحاديث وما يتعلق بها.

ورغم ما تقدم من أقوال العلماء وشهاداتهم له وتقديمه في معرفة الحديث ورغم ما أثر عنه من أقوال تفيد مدى اهتمامه واشتغاله بهذا العلم منذ حداثته ونعومة أظافره.

وكما استغربنا كلام الذهبي عنه نقف حائرين أمام تفسير عدم تمكنه من الإطلاع على (سنن النسائي) و(سنن ابن ماجه) و(جامع الترمذي)، وقد علمنا مدى حرصه واهتمامه بكتب السنة وما قام به من رحلات عديدة للتحصيل وجمع المعلومات [2].

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى ٣/٣، ابن العماد (شذرات الذهب ٣٠٤/٣، وفيات الأعيان ٨٥/١.

(٢) قال الذهبي: " لم يكن عنده (سنن النسائي) ولا (جامع الترمذي) ولا (سنن ابن ماجه) " انظر (تذكرة الحفاظ ١١٣٢/٣) و(طبقات الشافعية الكبرى ٣/٣)، وكذلك (سير أعلام النبلاء

مصنفاته:

بعد أن جاب البيهقي أقطار الأرض طلباً للعلم، والتقى بالكثير من العلماء ونهل من مواردهم المختلفة حتى فاق الكثير منهم عاد إلى بلده وأخذ يكتب الرسائل ويؤلف الكتب حتى بلغت - فيما قيل - ألف جزء، منها ما هو في الحديث، ومنها ما جمع بين الفقه والحديث ومنها ما انفرد بالعقائد، ولقد بورك له في مؤلفاته حتى لا يكاد يستغني عنها مسلم فنشر منها الكثير، وما لم تزغ عنه أعين الباحثين يترقبون له الفرص لنشره وبثه ليستقى من نهله العذب.

ولقد عدّد المترجمون عنه الكثير من كتبه لا سيما ما كتبه السيد أحمد صقر فقد ذكر من مؤلفاته واحداً وثلاثين مؤلفاً لكنه اقتصر في التعريف بها على ما كتبه السبكي عنها، وهي عبارات وجيزة مختصرة ولهذا سنذكر أهم تلك المؤلفات مع التعريف بها: -

١ - السنن الكبرى:

وهو أهم مؤلفاته وشهد له السبكي بقوله: " ما صنف في علم الحديث مثله تهذيباً وترتيباً وجودة " فأقر قول شيخه الذهبي: " ليس لأحد مثله " وذكره السخاوي ضمن كتب السنن وقال: " فلا تعد عنه لاستيعابه لأكثر أحاديث الأحكام، بل لا تعلم - كما قال ابن الصلاح - في بابه مثله ولذا كان حقه التقديم على سائر كتب السنن ولكن قدمت تلك لتقديم مصنفيها في الوفاة ومزيد جلالتهم ".

وقال الفاداني المكي: " لم يصنف في الإسلام مثلهما " ويعني السنن الكبرى والسنن الصغرى.

وقال أبو عبد الله محمد الأمير الكبير في تفسير كلام السخاوي المتقدم -: أي لا تتجاوز أنت عن كتاب السنن الكبرى ولا حاجة لك في طلب غيره " وقد جمع في مؤلفه السنن من أقوال الرسول ﷺ

(١٨٤/١١).

وأفعاله وتقريراته وموقوفات الصحابة وما أرسله التابعون فكان موسوعة كبرى في الحديث، وقد رتبه على أبواب الفقه، واشتغل به بعض العلماء فاختصره كل من إبراهيم بن على المعروف بابن عبد الخالق الدمشقي (ت ٧٤٤هـ) في خمس مجلدات والحافظ الذهبي (ت ٧٤٨ هـ) والشيخ عبد الوهاب بن أحمد الشعراني (ت ٩٧٤ هـ) وصنف الشيخ علاء الدين على بن عثمان المعروف بابن التركماني (ت ٧٥٠ هـ) كتاباً سماه (الجوهر النقي في الرد على البيهقي) وهو مطبوع في حاشية كتاب (السنن الكبرى) وأكثره اعتراضات(٤٠) عليه ومناقشات له ومباحثات معه.

ولخص كتاب (الجوهر النقي) زين الدين قاسم بن قطلوبغا الحنفي (ت ٨٧٩ هـ) في كتاب سماه (ترجيح الجوهر النقي) وقد رتبه على حروف المعجم وبلغ فيه إلى حرف الميم.

٢ - (معرفة السنن والآثار):

قال السبكي: " وأما المعرفة - معرفة السنن والآثار - فلا يستغني عنه فقيه شافعي، وسمعت الشيخ الإمام رحمه الله يقول: مراده معرفة الشافعي بالسنن والآثار " ا. هـ.

والحق أنه لا غنى لفقيه شافعي وغيره عنه لما جمع فيه من أحكام يستدل عليها بما في الكتاب والسنة، ويوازن فيه بين أقوال الفقهاء ويذكر أدلتهم ويبين الصحيح منها والضعيف.

فهو بدون ريب من موسوعات كتب الفقه المقارن قل أن تجد مثله وقد ضمنه الرد على أبي جعفر أحمد بن سلامه الطحاوي الحنفي الذي شن الغارة على الشافعي وأصحابه.

وقد خرج فيه مؤلفه ما احتج به الشافعي من الأحاديث في الأصول والفروع بأسانيدها التي رواها بها مع ما رواه مستأنساً به غير معتمد عليه أو حكاه لغيره مجيباً عنه.

وقد تكلم البيهقي على تلك الأحاديث والأخبار بالجرح والتعديل

والتصحيح والتعديل وأضاف إلى بعض ما أجمله الشافعي ما يفسره من كلام غيره وإلى بعض ما رواه ما يقويه من رواية غيره.

وبين فيه أن الشافعي لم يصدر باباً برواية مجهولة، ولم يبن حكماً على حديث معلول وأنه قد يورده في الباب على رسم أول الحديث بإيراد ما عندهم من الأسانيد واعتماده على الحديث الثابت أو غيره من الحجج.

وأنه قد يثق ببعض من هو مختلف في عدالته على ما يؤدي إليه اجتهاده كما يفعل غيره.

وأنه لم يدع سنة لرسول الله ﷺ بلغته وثبتت عنده حتى قادها، وهكذا نرى مقصده من تأليف (معرفة السنن) يتجلى في مقدمته الطويلة التي صدرها كتابه.

٣ - كتاب (المبسوط):

قال السبكي: " وأما المبسوط في نصوص الشافعي فما صنف في نوعه مثله ". وألفه البيهقي ليجمع كلام الشافعي ونصوصه مضبوطة بعد ما ضاق صدره مما وجده في الكتب من الإختلاف في نصوص الشافعي وإيراد الحكايات عنه دون تثبت، فحمله ذلك على نقل مبسوط ما اختصره المزني من كلام الشافعي وأدلته على ترتيب المختصر.

٤ - كتاب (الأسماء والصفات):

قال السبكي: " وأما كتاب الأسماء والصفات فلا أعرف له نظيراً " ا. هـ. وألفه البيهقي لبيان أسماء الله تعالى وأدلتها من الكتاب أو السنة أو الإجماع.

وبدأه بالثناء على الله ثم ذكر أسماء الله تعالى التي من أحصاها دخل الجنة وربط معاني تلك الأسماء بخمسة أبواب، وذكر أن هناك أسماءً غير هذه لله تعالى.

٥ - كتاب (الاعتقاد):

قال السبكي: " وأما - كتاب الاعتقاد - وكتاب دلائل النبوة - وكتاب شعب الإيمان - وكتاب مناقب الشافعي - وكتاب الدعوات الكبير - فأقسم ما لواحد منها نظير ".

وكتاب الاعتقاد كتبه البيهقي ليبين فيه ما يجب على المكلف اعتقاده والاعتراف به مع الإشارة إلى أطراف أدلته.

وقال المؤلف نفسه: " هذا الذي أودعناه هذا الكتاب اعتقاد أهل السنة والجماعة وأقوالهم ".

وهو لاشك كتاب نفيس في موضوعه يتسم بسلاسة الأسلوب والنقاش الهادئ وقوة الأدلة. وقد جمعه من تواليفه مما كتبه فيما يجب على المكلف اعتقاده والاعتراف به ملتزماً فيه الاختصار.

٦ - كتاب (دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة):

تكلم فيه عن مولد الرسول ﷺ ونشأته وشرف أصله ووفاة أبيه وأمه وجده.

وذكر فيه صفاته الخلقية والخلقية، وزهده في الدنيا وسيرة حياته منذ ولادته حتى وفاته، تباشير بعثته والمعجزات التي ظهرت على يديه.

وركز في مباحثه على المعجزات وخوارق العادات فذكر فيها أحاديث جلها صحيحة وبعضها فيه مقال.

وهو كتاب من أجمع تصانيف، مؤلفه لما أورده فيه وعني به وقد اعتمد فيه على كتب السابقين له.

٧ - كتاب (شعب الإيمان):

وهو كتاب كبير في ستة مجلدات، كتبه البيهقي على نمط (كتاب) أبي عبد الله الحسين بن الحسن الحليمي (ت ٤٠٣هـ) في بيان شعب الإيمان المشار إليها في حديث رسول الله ﷺ :«الإيمان بضع وسبعون

شعبة أفضلها لا إله إلا الله وأوضعها إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان» ولم يجمع تلك الشعب ثم يكلم عليها واحدة تلو الأخرى وإنما أورد كلامه مفصلاً عن كل واحدة منها مستوفياً أدلتها وشارحاً لها في جميع الكتاب وقد زاد على (كتاب) الحليمي ذكر الأسانيد التي عليها مدار الروايات.

٨ - كتاب (مناقب الشافعي):

وهو أجمع ما رأيت من كتب مناقب الإمام الشافعي، وقد نقل فيه مؤلفه عمن كتب قبله في ترجمة الإمام - كابن أبي حاتم (ت ٣٢٧ هـ)، وأبي الحسن محمد بن عبد الله الرازي (ت ٤٥٤ هـ).

ويتضح فيه تحمسه الشديد للشافعي ومذهبه أن دون المساس بأحد، وكأن مرجع ذلك اقتناع البيهقي بتمسك الشافعي بالكتاب والسنة وأنه أقرب الأئمة منهما.

وبدأ كتابه بذكر ما لقريش من الخصائص لا سيما بني هاشم وبني المطلب ليدلل على مكانة الشافعي ونسبه.

وقد ذكر فيه مولده ونسبه وتعلمه وتعليمه وتصرفه في العلم وتصانيفه واعتراف علماء دهره بفضله، ومما يستدل به على كمال عقله وزهده في الدنيا وورعه واشتهاره بخصال الخير، ومكارم الأخلاق.

وقد أورد فيه أحاديث صحيحة وأخرى لا تخلو من مقال.

وقد نقل كثير من المؤلفين عن كتاب (مناقب الشافعي) بل كان جل كتاباتهم مستقاة منه لأن البيهقي لم يترك شيئاً مما له أدنى علاقة بالشافعي إلا وذكره إلى جانب التثبت من الروايات.

٩ - كتاب (الدعوات الكبير):

ألفه البيهقي إجابة لسؤال أحد، إخوانه في أن يجمع له ما ورد من الأخبار في الأدعية المرجوة التي دعا بها رسول الله ﷺ أو علّمها

أحداً من أصحابه، وقد ذكرها بأسانيدها وقد رتبه على ترتيب كتاب المختصر المأثور لأبي بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة وأضاف إليه زيادات لم يعرض لها ابن خزيمة.

بدأ كتابه بذكر ما للدعاء والذكر من الأجر والثواب.

١٠ - كتاب (الدعوات الصغير).

١١ - كتاب (الزهد الكبير):

ذكر فيه أقوال السلف والخلف رضي الله عنهم في فضيلة الزهد وكيفيته وأنه في قصر الأمل والمبادرة بالعمل الصالح.

١٢ - كتاب (إثبات عذاب القبر وسؤال الملكين)

أورد فيه الأدلة الشرعية من الكتاب والسنة وأقاويل السلف لإثبات عذاب القبر وسؤال الملكين، وقد بين أن ذلك جائز عقلاً كما جاز شرعاً.

١٣ - كتاب (أحكام القرآن):

جمع البيهقي فيه من نصوص الشافعي ما يدل على مبلغ - علمه - بالمعاني الدقيقية في القرآن.

ومقصد الكتاب ظاهر من عنوانه وهو مثل كتاب (أحكام القرآن) لأبي بكر أحمد بن على الرازي - الجصاص -، وكتاب (أحكام القرآن) لأبي بكر بن العربي.

١٤ - كتاب (المدخل):

وهو من سماع عبيد الله بن عمر يحي بن عمر الكجي وخط تقي الدين أبي عمر وعثمان بن عبد الرحمن بن عثمان بن موسى أبي نصر النصري الشهروزري.

وعلى الكتاب بعض السماعات وفي آخره ذكر السند إلى البيهقي. وخط النسخة دقيق متداخل بعضه في بعض، وعليها سماعات ابن الصلاح والحافظ المزي وسماعات أخرى.

١٥ - كتاب (البعث والنشور):

وهو بخط محمد بن عبد العزيز بن محمد في خيزان في سنة أربع وأربعين وثمانمائة وعليه بعض السماعات.

١٦ - كتاب (تخريج أحاديث الأم):

وقد خرج فيه أحاديث كتاب: (الأم) حديثًا حديثًا مع سنده والتعليق عليه.

١٧ - كتاب (الخلافيات بين الشافعي وأبي حنيفة):

ذكر فيه ما اختلف فيه أبو حنيفة والشافعي في الأحكام، وقد رتبه على أبواب الفقه.

١٨ - كتاب (بيان خطأ من أخطأ على الشافعي)[١].

* * *

(١) نايف هاشم الدعيس، الإمام البيهقي، مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، العدد ٤٤.